

المطامع الأوربية في أعالي النيل بوسط أفريقيا
1216 - 1240 هـ / 1898 - 1921م

د. صلاح حامد عبد الرحمن على*

الملخص:

بدأ تكالب الدول الأوربية حول وسط القارة الأفريقية في أواخر القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادي، و كانت منطقة أعالي النيل هى التى احتدم فيها الصراع بين تلك القوى العظمى، و كاد أن يؤدى إلى مواجهات عسكرية فيما بينها بسبب السعي لامتلاك أراضى ومساحات تتمتع بالغنى والثراء الطبيعى، لكن بريطانيا حاولت جاهدة ألا تسمح لغيرها من تلك الدول أن تحصل على مبتهاها أو أن تحتل أي من تلك الأماكن في أعالي النيل احتلالاً دائماً. ذلك التنافس بين البلاد الأوربية حول وسط أفريقيا يلفت النظر إلى أهمية المنطقة التجارية والاقتصادية بالنسبة للأوربيين، وذلك من خلال سعيهم للبحث عن المواد الخام لصناعاتهم والأسواق لمنتجاتهم من السلع التجارية، ومحاربة الإسلام الذي سيعيق تحقيق تلك الأهداف. و قد اعتمدت هذه الدراسة على مصادر ومراجع أساسية مهمة ذات صلة وثيقة بموضوع البحث، ساهمت بقدر وافر فى عرض النقاط الرئيسة عرضاً منطقياً وموضوعياً ومناقشتها وتحليلها، بالشكل الذى يساهم فى إبراز الحقائق التاريخية وفقاً للمنهج العلمى التاريخي الوصفي المتبع، لعرضها أمام القارئ بوضوح وشفافية تامة.

* أستاذ مشارك، قسم التاريخ، كلية التربية، جامعة كردفان

Abstract

European countries seemed to scramble around the middle of the African continent in the last third century of Hijra /ninth century A.D., and the Upper Nile region is where conflict has raged between those superpowers, and almost led to military confrontation between them. Because of seeking to acquire land and spaces with lots of natural rich, Britain tried but struggled but allows other of those states that occupies any of those places continuous occupation. This competition between European countries about Central Africa draws attention to the economic and commercial importance of this region for European, and through their quest to find the raw materials for industry and the markets for their products of the commercial goods. And fight Islam, which would hinder the achievement of those targets.

This study relied on sources for closely related research topic, helped as much as the main display presentation logically and objectively discussed its analyzes, away that help to highlight the historical facts in accordance with the curriculum, descriptive practice and displayed in front of the reader clearly and fully transparent.

تمهيد

كان لبريطانيا نفوذ ظاهر الأثر في منطقة خط الاستواء في بداية القرن الثالث عشر الهجري / نهاية القرن التاسع عشر الميلادي (1) وعلى الرغم من ذلك فإن بريطانيا لم تقرر حتى ذلك الوقت سياسة التدخل في السودان بشكل مباشر ضد حكومة المهديّة و إن كانت قد كونت رأياً حول الأمر (2) و استمرت قانعة بالبقاء في مصر تراقب عن كثب ما يجرى من حوادث في وادي النيل. وقد نجح السير إفلنج بارنج E.Baring المعروف بالورد كرومر Cromer L فيما بعد في حمل الحكومات البريطانية المتعاقبة على قبول هذا الوضع بعض الوقت (3) و كان من رأيه استبعاد أي محاولة لاحتلال السودان، بحجة أن موارد مصر المالية و قدراتها العسكرية لا تفي بأكثر من الدفاع عن حدودها الجنوبية تجاه أي هجمات من حكومة المهديّة في السودان، و التي يمكن أن تُبقى هذه الحدود مستقرة في إطار هذه الإمكانيات (4). كما ذهب اللورد كرومر إلى أن تهديد حكومة المهديّة في السودان لمصر لا يسبب أي قلق كالذي يسببه استيلاء دولة أوربية على أي جزء من السودان، إذ يعتقد كرومر أن المهديّة لا تملك الموارد والخبرة الهندسية التي قد تُلحق الضرر بمصر التي تعتمد على نهر النيل (5).

ولكن الحكومة البريطانية قررت وبشكل مفاجئ لكرومر التدخل عسكرياً في السودان وتنفيذ فكرة الإحتلال عام 1314هـ / 1896م، وذلك لأسباب سياسية منها، ما يتعلق بالمنافسة الدولية الحادة في أعالي النيل وتريص العديد من الدول الأوربية بهذه الجهات، وذلك عندما طرحت منطقة وادي النيل في سوق المفاوضات الإستعمارية في برلين عام 1303هـ/1884-1885م، حيث كانت فرنسا وبلجيكا من الأطراف الرئيسة

فى المزايدة القائمة فى مواجهة بريطانيا (6). وأهم من ذلك هو أن فرنسا كانت قد أظهرت أطماعها الإستعمارية وخالفت بقية الدول الأوربية بعدم الإتفاق مع بريطانيا حول تلك الجهات، و فى عام 1314هـ/ 1896م كانت قد إستكملت وضع خططها لإرسال حملة عسكرية إلى أعلى النيل (7) مما أثار مطامع ومخاوف الساسة البريطانيين من جانب فرنسا، حيث تعتقد بريطانيا أنها أحق بها دون الآخرين.

الأطماع البريطانية فى وسط أفريقيا:

قوبلت فكرة إرسال حملة إلى وادى النيل بحماس كبير من جانب الرأى العام البريطانى عام 1314هـ/1896م، و ذلك بسبب المهانة والغضب الذين شعر بهما المجتمع فى بريطانيا بعد أن بلغته حوادث إنتصارات الثورة المهدية فى السودان وأنباء مقتل غردون باشا فى الخرطوم عام 1303هـ/1885م ومن قبله هكس باشا فى منطقة شيكان بكردفان وأسر غيرهم من البريطانيين والأوربيين الذين كانوا يُعدون من المغامرين والأبطال فى نظر تلك المجتمعات الأوربية، وقد ضاعف من ذلك السخط والتذمر فى لندن تباطؤ الحكومة البريطانية فى إتخاذ موقف حاسم من تلك الحوادث التى تجرى فى السودان منذ فترة ليست بالقصيرة، ومما أدى لتفاقم ذلك السخط والتوتر، الوصف المؤثر لإراقة الدماء فى العديد من المؤلفات التى تم نشرها عن تلك الحوادث، ومن تلك المؤلفات على سبيل المثال لا الحصر، كتاب ج. أوهروالدر G.Ohrwalder بعنوان (عشر سنوات فى معسكرات المهدية) Ten years captivity in the Mhadis camps و أيضاً كتاب رودلف سلاطين باشا Rudolf Salatin بعنوان (السيف و النار فى السودان) Fire and sword in the Sudan وهذا النوع من المؤلفات أدى لإثارة مشاعر

الغضب والإستياء لدى عامة الناس في بريطانيا آنذاك⁽⁸⁾، و ولد لديهم شحنة كبيرة من التعصب والحقد وصلت إلى حد التأثير على العسكريين والسياسيين وجعلت السير هربرت كتشنر H.Kitchener الذي قاد جيش إحتلال السودان وتمكن من القضاء على جيوش المهديّة عام 1316هـ/1898م يقول: " ليس من شك في أن الدين الإسلامي يلقي ترحيباً من أهالي تلك البلاد الذين سيصبحون بعد ذلك متعصبين، وإذا لم تقبض القوى المسيحية على ناصية الأمر في أفريقيا، فإن العرب خليقون بأن يخطو هذه الخطوة، الأمر الذي سيتيح لهم إقامة مركز في وسط القارة الأفريقية يستطيعون منه طرد كافة القوى والتأثيرات الحضارية الأوروبية إلى الساحل، وعندئذ ستقع المنطقة بأكملها في وهدة العبودية وسوء الحكم كما يحدث في السودان الآن (يقصد الثورة المهديّة) وإذا حدث هذا فسيتربط عليه الحاجة فيما بعد إلى حملة كبيرة ضخمة لإخضاع تلك القوى الإسلامية " ⁽⁹⁾ جاء ذلك في مذكرة كتبها عام 1310هـ/ 1892م خلال الفترة التي بدأت تشهد النشاط المريب للأطماع الأوروبية الاستعمارية حول منطقة أعالي النيل ومنطقة البحيرات الإستوائية من وسط أفريقيا، وهذا التصريح يشير إلى المزاج والشعور العام السائد في أوربا تجاه الإسلام والمسلمين في تلك الجهات. ويؤكد بوضوح لا لبس فيه من جهة أخرى إلى بوادر المخطط الإستعماري والمطامع الأوروبية التي تستهدف تقدم الإسلام في القارة الأفريقية، ودخول الإسلام في هذه المنطقة سيفسد على الأوروبيين خططهم وأطماعهم الإستعمارية، بل وعملية إستغلالها بأقل خسائر ممكنة، وذلك أمر يصعب التكهّن به في حالة وجود حضور إسلامي فاعل في تلك الجهات. ويبدو أن نشاط الحركات الإسلامية في أفريقيا والمُتمثل في المهديّة بالسودان والحركة

السنوسية فى ليبيا وحركة الشيخ أحمد القرين فى الصومال وغيرها من الحركات التى بدأت تتلمل فى غرب أفريقيا، قد جعل أطماع القوى الأوربية أقل صبراً على ما يحدث بل وأكثر حرصاً على تحقيق تلك المطامع على وادى النيل و منطقة البحيرات الإستوائية من وسط أفريقيا.

وفى منتصف الثمانينات حدث تحول كبير فى علاقة بريطانيا بالقارة الأفريقية عندما شعرت بمزاحمة الدول الأوربية الأخرى لها فى ميدان التجارة العالمية، خاصة ألمانيا التى أصبحت قوة صناعية كبرى فى ذلك الوقت، والتى أخذت تعمل بسياسة الحماية الإقتصادية لمنتجاتها، بينما كانت أرقام التجارة البريطانية تنخفض فى الخارج، وذلك حينما بدأت الدول الأوربية بالإستثمار فى المناطق المتخلفة، حيث كانت الصناعة الألمانية تُغطى بريطانيا ومستعمراتها (10).

وبناءً عليه فقد رأت الغرفة التجارية البريطانية أنه من الضرورة أن تمتلك بريطانيا السيطرة على حوض النيل والمناطق الإستوائية، إذ سيدخل ذلك فى إطار المشروع الذى رسمته بريطانيا، والذى يتمثل فى فكرة إنشاء إمبراطورية بريطانية لها فى القارة الأفريقية تمتد من رأس الرجاء الصالح جنوباً (مدينة الكاب) وحتى القاهرة فى مصر شمالاً، وقد تمخض عنه

مشروع إستثمارى آخر إقترحه السيد سيسل رودس Cecil Rhodes * قضى بمد خط سكة حديد يربط بين المدينتين و بالطبع سيشمل ذلك المشروع جنوب السودان و منطقة البحيرات الإستوائية.

و خلال تلك الفترة خطت بريطانيا لبناء إمبراطورية لها فى وسط أفريقيا بتأثير المغامرين من رجال المال والسياسة فى بريطانيا، من أمثال سيسل رودس فى جنوب أفريقيا و هارى جونستون H.Johnston فى نياسا لاند

ووليم ماكنون William McKinnon فى شرق أفريقيا وغيرهم، وعندئذ باتت سياسة بريطانيا تعمل على حماية وادى النيل من الأطماع الأوربية، فهناك مطامع إيطاليا فى شرق القارة، و تحركات فرنسا فى أعالي النيل، ومحاولات بلجيكا فى منطقة بحر الغزال و المديرية الإستوائية⁽¹¹⁾.

وهكذا يبدو بوضوح تام أن بريطانيا قد بدأت ترى فى وسط أفريقيا ميداناً فسيحاً للمشاريع الإستعمارية الواسعة، و التى من الممكن أن تجعل لها إمبراطورية أفريقية مثلاً لما أقامته فى الهند و كندا وأستراليا خاصة بعد أن يتحقق مشروعها الذى يعمل على ربط زنجبار بالبحيرات الإستوائية برعاية قنصلها العام جون كيرك John Kirk فى زنجبار⁽¹²⁾.

وعلى الرغم من أن جلاستون Gladstone رئيس وزراء بريطانيا آنذاك قد كشف عن مطامع بلاده فى أفريقيا بأن تكون منطقة خط الإستواء هى حلقة الوصل بين القاهرة وكيب تاون Cape town لبناء إمبراطورية بريطانية أفريقية، إلا أنه تلتكأ فى تنفيذ ذلك، حيث جاءت وزارة جديدة من حزب المحافظين بقيادة اللورد سالسبورى Salisbury تعارض سياسة العزلة التجارية التى إنتهجتها حكومة حزب الأحرار السابقة و تؤيد حيازة مستعمرات جديدة فى القارة الأفريقية⁽¹³⁾.

وكان سالسبورى يرى أنه من الصعوبة منع الدول الأوربية الأخرى من الإستيلاء على المناطق المتخلفة طالما أنها لا تخضع للسيطرة البريطانية، لكن اللورد كرومر أوضح لسالسبورى أن وضع السودان يختلف إذ أنه جزء من الدولة العثمانية وتحت إشراف الخديوى فى مصر نيابة عن الباب العالى فى إسطنبول، ثم أشار له بأن الدولة التى تمتلك حوض النيل

الأعلى من الطبيعي بحكم الموقع أن تكون لها السيطرة على الوادى
بأكمله⁽¹⁴⁾.

وكان فى إعتقاد اللورد سالسبورى أن الأسطول البريطانى يستطيع
حماية منطقة وادى النيل من ناحية الشمال فى البحر المتوسط إلا أن تلك
الحماية لن تتوفر لها من جهة الجنوب فى وسط أفريقيا الإستوائية، و قد كان
سالسبورى قلقاً حيال ذلك وإزداد قلقه عندما شرعت ألمانيا فى الإستفادة من
المراكز التى حققتها فى أفريقيا الشرقية، وكانت ألمانيا قد رفضت تحديد أى
مجال للتوسع فى أفريقيا نحو الداخل، الأمر الذى بات يشكل فى نظر
الساسة البريطانيين تهديداً للمصالح البريطانية فى تلك الجهات⁽¹⁵⁾.

فبينما كانت بريطانيا تحتفظ لنفسها بمصر فقد كانت ترغب فى منع
أى دولة أوربية أخرى من الدخول والسيطرة على منابع النيل، وتلك الرغبة
الجامحة قد تم تنفيذها عبر شركة شرق أفريقيا البريطانية التى يترأس إدارتها
السير وليم ماكينون الذى عمل على تشجيع تنامى مطامع النفوذ البريطانى
فى وسط أفريقيا بهدف وقف التوسع الألمانى فى تلك الجهات، والمتمثل فى
نشاطات المغامر الألمانى كارل بيترز Karl Peters ممثل شركة شرق
أفريقيا الألمانية فى المنطقة، وقد رأت الدولتان عقد إتفاق حول أطماعهما
عام 1308هـ/1884م حتى لا يكون هناك صدام بينهما، مفاده إعتبار كينيا
وأوغندا مناطق نفوذ بريطانية دون أن يكون هناك تحديد دقيق ومفصل
جغرافياً لتلك المناطق⁽¹⁶⁾.

الأطماع الألمانية فى وسط أفريقيا:

صاحب وصول الألمان إلى منطقة شرق أفريقيا نشاط ملحوظ عام
1302هـ/1884م عندما حصل المغامر الألمانى كارل بيترز على توقيعات

زعماء القبائل فى تلك الجهات عبر معاهدات تمت بينه وبينهم يقبلون فيها حماية جمعية الإستعمار الألمانية⁽¹⁷⁾، وهذا العمل يؤكد الأطماع الألمانية فى السعى لاحتلال مساحات واسعة فى المنطقة قد تشمل البحيرات الاستوائية، إلا أنهم لم يبدأوا بأى تحركات عسكرية بالفدر الذى يشكل خطراً على المصالح البريطانية فى أعالي النيل، ويبدو أن إتفاق عام 1308هـ/ 1890م بين الإنجليز والألمان قد تكفل بتهدة السياسيين الألمان وعمل على إقناعهم بعدم اتخاذ أى إجراءات عسكرية قد تؤثر بشكل ما على ما يسمى دوائر النفوذ البريطانية فى تلك الجهات.

حدث ذلك فى الوقت الذى كانت فيه السياسة البريطانية تتدعى أنها تعمل على تأكيد حقوق الحكومة الخديوية فى مصر على منطقة أعالي النيل، إذ لم يكن لحكومة المهديّة سيطرة كاملة على جنوب السودان حيث كان من السهل على الألمان الوصول إلى تلك المناطق، مما يشير على أن المساعى التى كانت تقوم بها بريطانيا فى شكل إتفاقات ومعاهدات كانت تدخل فى إطار حماية تلك الجهات من أطماع الدول الأوربية الأخرى ومنها المطامع الألمانية⁽¹⁸⁾.

استغلت بريطانيا الهدوء الذى خلفه الإتفاق مع الألمان، خاصة و أنه قد تضمن من جانبهم إقراراً بمناطق النفوذ البريطانية فى شرق أفريقيا، إستغلت بريطانيا كل ذلك وسيرت حملة عام 1311هـ/ 1893م على أوغندا واستولت على أونيوورو وبوغندا بهدف توطيد مركزها فى وسط أفريقيا وحماية وادى النيل من الناحية الجنوبية لتحقيق أطماعها التوسعية⁽¹⁹⁾.

ومن الجدير بالذكر هنا أن تلك المناطق كانت تشكل جزءاً من مديريةية خط الاستواء فى تلك الفترة، وهى بالتالى أول منطقة من مناطق

الجنوب فى السودان الخاضع لسلطة الخديوى كما تدعى بريطانيا يقع تحت الاحتلال البريطانى المباشر، الأمر الذى مهد لخروجها نهائياً عن حدود السودان السياسية المعروفة آنذاك.

استغلت بريطانيا فرصة التنازل الذى لوحت به ألمانيا حينما قدمت إعتراضاً رسمياً بإبرامها لذلك الإتفاق مع بريطانيا، إذ سيفسر على أنه تأييد من جانب ألمانيا لإدعاءات بريطانيا فى شرق ووسط أفريقيا، والتي لم تتردد من جانبها فى تأكيد ذلك بإظهار تلك المناطق وما يليها مثل بحر الغزال وكردفان ودارفور فى الخرائط الإنجليزية، مع أن الجيوش البريطانية لم تدخلها إلى ذلك الحين⁽²⁰⁾.

وهكذا وجدت ألمانيا نفسها أمام أمر واقع حيث وافقت على عقد اتفاق آخر مع بريطانيا عام 1311هـ/ 1893م تضمن تأكيداً لما جاء فى الاتفاق السابق، مما طمأن بريطانيا لبعض الوقت، حيث لم تلبث تلك الطمأنينة أن تحولت إلى قلق فى العام التالى عندما علمت بتنازل ألمانيا لفرنسا عن منطقة نفوذها فى تلك الجهات فى المعاهدة التى تمت بينهما عام 1312هـ/ 1894م، وقد منح ذلك التنازل فرنسا منفذاً فى أعالي النيل⁽²¹⁾. وقد جاء رد فعل بريطانيا على ذلك بعقد معاهدة مع بلجيكا فى نفس السنة، أعطت فيها بريطانيا ليوبولد ملك بلجيكا منطقة حاجز جبل لادو فى جنوب السودان مدى حياته بهدف سد الطريق أمام فرنسا حتى لا يكون لها أى مخرج نحو أعالي النيل⁽²²⁾، وكانت فرنسا آنذاك من أخطر الدول الإستعمارية تجاه المصالح البريطانية بحكم أطماعها فى المنطقة من جهة وبحكم الندية التى كانت تشعر بها مقابل بريطانيا من جهة أخرى.

حافظت بريطانيا على مكانتها من ألمانيا إلى أن تحصلت منها على أهم مناطق نفوذها عقب الحرب العالمية الأولى في تتجانيا، حيث أصبحت تسيطر على منطقة شرق أفريقيا بكاملها عدا الصومال الفرنسي⁽²³⁾.

الأطماع البلجيكية في وسط أفريقيا:

تم الاتفاق بين الملك ليوبولد ملك بلجيكا، عاهل دولة الكونغو الحرة وبين بريطانيا عام 1312هـ/1894م على أسلوب التفاوض وعدم الدخول في صراعات عسكرية حول تقسيم منطقة أعالي النيل في وسط أفريقيا، وقد احتفظت بريطانيا بموجب ذلك الاتفاق على منطقة شرق المديرية الاستوائية وتركت الجهات الغربية منها مؤجرة للملك ليوبولد وبناءً عليه فقد أصبح هناك حاجز يمنع وصول الفرنسيين إلى منطقة أعالي النيل من الناحية الغربية في خط الاستواء، كما أصبح من حق القوات البلجيكية احتلال تلك المنطقة و التي شرعت بالفعل في تنفيذ ذلك. و إذا كانت فرنسا تجهل تماماً أمر ذلك الاتفاق من جهة، فقد تم إسكات كل من تركيا ومصر بعبارات فضفاضة لا قيمة لها بأن طرفي الاتفاق لا يتجاهلان إدعاءاتهما في ملكيتها⁽²⁴⁾.

لم يكن ليوبولد قانعاً بما حققه على الصعيد التفاوضي حول المنطقة، بل سافر إلى لندن عام 1313هـ/1895م حيث عرض على اللورد سالسبوري رئيس الوزراء في الحكومة البريطانية التنازل عن جميع الأراضي جنوب الخرطوم وكانت تشمل أعالي النيل والاستوائية وبحر الغزال، إلا أن سالسبوري لم يوافق على ذلك. لكن ليوبولد عاد مرة أخرى بعد شهرين بعرض آخر جديد يقاوض فيه بريطانيا بعدم إعتراضه على توسعها في الصين، ولكن ذلك العرض الجديد أيضاً لم يتم قبوله، فعاد في العام التالي بإقتراح

فكرة تسليم جميع الأراضي التي سيتم إخضاعها إلى بريطانيا، و دُهِشت الدوائر السياسية البريطانية من تلك المقترحات و لم تعرها أى إهتمام (25). هذه الجهود المكثفة التي قامت بها بلجيكا فى شخص الملك ليوبولد تعكس مدى إهتمام الدول الأوروبية بمنطقة وسط أفريقيا و بالتحديد أعالي النيل والبحيرات الإستوائية بإعتبارها مناطق واعدة بالغنى والثراء، إلا أن بريطانيا أبقت على المزيد من الحرص فى التمسك بها و عدم التفريط فيها أو قبول أى مساومة حولها.

وإزاء تعنت الحكومة البريطانية تحول ليوبولد إلى التفاوض مع الحكومة الفرنسية اعتمادا على صداقته مع فليكس فور Felix Faure رئيس جمهورية فرنسا آنذاك ، استنادا على المعاهدة التي أبرمتها بلجيكا مع فرنسا عام 1894م/1312هـ والتي تقضى بفتح الطريق أمام الفرنسيين للتقدم نحو أعالي النيل فى مقابل عدم معارضة الملك ليوبولد فى إستئجاره لحاجز جبل لادو الذى تحصل عليه من بريطانيا بموجب إتفاق مماثل (26). وبجلاء القوات البلجيكية من إقليم بحر الغزال لصالح فرنسا قد جدد الآمال الفرنسية لتحقيق أطماعها التوسعية فى أعالي النيل من وسط أفريقيا الأمر الذى سيشكل قدراً من الخطورة على المصالح البريطانية فى تلك الجهات.

الأطماع الفرنسية فى وسط أفريقيا:

أخذت الدول الاستعمارية الأوروبية فى السنوات الأخيرة من القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى بفكرة المساهمة بأموالها خارج بلادها بغرض الإستثمار، مما أضفى على تلك المرحلة التاريخية المظهر الإقتصادي (27)، وقد برز التنافس بين بريطانيا وفرنسا فى وسط أفريقيا عندما بات فى حكم المؤكد بالنسبة لفرنسا أن سياسة بريطانيا قد أصبحت تقوم على

إعتبار أن وادي النيل منطقة نفوذ خاصة بها وحدها، عندها بدأت فرنسا التفكير في وضع مخطط لتتحدى به تلك السياسة وتعوق به المشروعات البريطانية في المنطقة المعنية، وعليه قررت السلطات الفرنسية إرسال حملة من قواتها المتمركزة في أفريقيا الوسطى إلى منطقة بحر الغزال للسيطرة على أعالي النيل بدعم كبير من الرأي العام الفرنسي في هذا الأمر⁽²⁸⁾.

لم تكف فرنسا بذلك فقط بل قامت بعقد إتفاق مع إمبراطور إثيوبيا منليك Menelik لمد حدود دولته الغربية نحو بحر الجبل في جنوب السودان على النيل الأبيض، في مقابل التعاون معها لمد حزام فرنسي أفقي يمتد من الصومال الفرنسي شرقاً إلى داكار في السنغال غرباً و أبلغته أن جيشاً فرنسياً قد توجه نحو وسط أفريقيا الإستوائية ليلتقى بالقوات الأثيوبية عند بحر الجبل من مجرى النيل الأبيض⁽²⁹⁾، ويعتقد أن فرنسا بذلك تريد وقف توسع بريطانيا في وسط أفريقيا بدءاً من وادي النيل، وعندما علمت بريطانيا بتلك التحركات الفرنسية، سارعت إلى تنفيذ فكرة إحتلال السودان لوقف الأطماع الفرنسية التي باتت تهدد مصالحها الإستراتيجية في المنطقة⁽³⁰⁾، وكانت بريطانيا تخشى من أن تتمكن فرنسا بتلك الخطوة من تثبيت أقدامها في المنطقة وعند ذلك ستنتقل المشكلة إلى المجال الدولي وفرنسا فيه الكثير من الأنصار وسيتمكنها ذلك الثبات على التفاوض من مركز قوى⁽³¹⁾، هذا إذا ماتم معالجة هذا الأمر عن طريق التفاوض.

انزعجت بريطانيا من تلك الأطماع الفرنسية، فدفعت السفير البريطاني في باريس إدموند منسون Edmond Monson بتقديم مذكرة إلى وزير الخارجية الفرنسية تفيد بعدم إعتراف الحكومة البريطانية لأية دولة أوربية بإحتلال أى جزء من وادي النيل في وسط أفريقيا، وكان السير إدوارد قرای Edward Gray عضو البرلمان البريطاني قد صرح بذلك من قبل،

حيث أُبلغت الحكومة الفرنسية رسمياً بهذا الأمر في ذلك الوقت، وأن الحكومة البريطانية مازالت متمسكة بتلك التصريحات⁽³²⁾.

وكانت الحكومة الإيطالية قد اعترفت لبريطانيا في عام 1309هـ/1891م بحقها في السيادة على وادي النيل⁽³³⁾ وإنطلاقاً من ذلك فقد منعت بريطانيا كافة الدول الأوروبية من إحتلال أى جزء من وادي النيل إحتلالاً دائماً، إلا أن الحكومة الفرنسية صممت على إرسال حملة عسكرية لإحتلال منطقة فشودة في أعالي النيل و رفع العلم الفرنسى عليها. و في أمر لافيت نيه مجلس الوزراء الفرنسى وزير المستعمرات الفرنسى ديلكاسيه Delicasse بضرورة إحتلال أكبر مساحة ممكنة من أعالي النيل، إذ كانت الحكومة الفرنسية تتوقع زحفاً للقوات البريطانية من أوغندا، ويعتقد أن فرنسا بتلك الخطوة تريد أن تُرغم بريطانيا على التفاوض معها لإجراء تسوية لكافة المشكلات العالقة بين البلدين بغرض المحافظة على هوية فرنسا في المجتمع الدولي، ولتلك الأسباب وغيرها تعجلت فرنسا إرسال حملة إلى أعالي النيل في وسط أفريقيا تحت قيادة الكابتن مارشان Marchand عام 1314هـ/1896م⁽³⁴⁾، وفي ذلك الوقت أعدت بريطانيا قوة عسكرية بإسم الخديوى في مصر لإحتلال السودان وإزالة حكومة المهديّة، إذ كانت تريد بذلك الإحتجاج بحق الفتح Right of conquest المتعارف عليه آنذاك وتشرك نفسها إلى جانب الحكومة التركية في حكم السودان على الرغم من إحتجاج السلطان العثمانى على ذلك⁽³⁵⁾.

وفي عام 1316هـ/1898م كانت القوات البريطانية تحت قيادة كتشنر قد إجتاحت شمال السودان وهزمت جيش المهديّة و تقدمت نحو الجنوب، حيث تسلم اللورد كرومر في مصر رسالة من رئيس وزراء بريطانيا تفيد بأن هناك مواجهة قد تقع مع القوات الفرنسية في أعالي النيل، وأن بريطانيا ستدعى سيادتها على تلك الجهات بإسم الحكومة التركية في مصر أو بإسم

الحكومة البريطانية أو بإسم الإثنين معاً (36). و في نفس تلك الفترة كانت الحملة الفرنسية التي يقودها مارشان قد تمركزت في منطقة فشودة و رفعت عليها العلم الفرنسي (37).

وعندما و صل كتشنر إلى فشودة، نزل على مسافة قريبة من القوات الفرنسية ورفع علم الحكومة التركية في مصر، وأبلغ مارشان إحتجاج الحكومة البريطانية على إحتلال المنطقة و رفع العلم الفرنسي على ممتلكات الحكومة التركية وإنتهاك حقوق الحكومتين التركية في مصر والبريطانية في لندن معاً (38).

كان رد مارشان أنه كجندى لايمك سوى تنفيذ الأوامر، وأنه لن ينسحب إلا بعد صدور أوامر جديدة من الحكومة الفرنسية، وأن القوة الفرنسية ستدافع عن نفسها في حالة اتخاذ كتشنر لأى إجراءات عسكرية، ولم يعترض على رفع العلم التركي. و بذلك يكون الموقف قد تأزم بين الدولتين، إذ من الممكن أن يؤدي أى تصرف إستفزازي متهور يصدر من إحدى القوتين إلى إشتعال حرب في المنطقة بين بريطانيا وفرنسا، ولكن القائدين فضلا التريث و رفع الأمر إلى الحكومتين في لندن وباريس (39).

بدأت أزمة مفاوضات مكثفة بين الدولتين بدلاً عن الحرب، حيث كانت فرنسا تحتج بأن يكون لها الحق في مخرج على النيل مثل ما هو للألمان و البلجيكيين مع اقتناعها بأن بريطانيا لن تتراجع عن موقفها، ولكنها لا تريد أن تُظهر للرأي العام الفرنسي أنها قد استسلمت بسهولة، وعقب مفاوضات شاقة أبلغت الحكومة الفرنسية بريطانيا أنها قد تلقت تقريراً من مارشان يفيد بأن منطقة فشودة لا تمثل مخرج على النيل بالنسبة للحكومة الفرنسية، حيث صدرت الأوامر إلى مارشان بالانسحاب عام 1898/هـ 1316م و تم حسم الخلاف بين الدولتين بتقسيم وسط أفريقيا في العام التالي بين فرنسا وبريطانيا (40).

نتائج الدراسة:

وقوع منطقة أعالي النيل بوسط أفريقيا الاستوائية في غمار مؤامرات السياسة الدولية، حيث دفعت الأطماع الأوربية بريطانيا إلى التخلي عن مبدأ التدخل في السودان عسكرياً وبشكل مباشر، عندما تبين لها أن مصالحها في وسط أفريقيا قد تتعرض إلى التهديد. كما يلاحظ أن بريطانيا قد بذلت الكثير من الجهود السياسية والعسكرية لإبعاد أي نفوذ أوربي عن أعالي النيل، إذ لم تسمح لأي دولة أوربية باحتلال أي جزء من وادي النيل احتلالاً دائماً. أن بريطانيا قد أظهرت في مفاوضاتها مع تلك الدول حول المنطقة نوعاً من الازدواجية لتبرير موقفها من السيطرة على أعالي النيل في وسط أفريقيا، وقد تجلت تلك الازدواجية بوضوح تام، عندما اعتبرت أن أراضي المنطقة هي من أملاك الدولة العثمانية في تركيا وقد خرجت تلك الأراضي من حوزتها بعد الإحتلال البريطاني لها، وعلى هذا الأساس أبرمت بريطانيا إتفاقها مع ألمانيا عام 1308هـ/1890م حددت فيه مناطق النفوذ بين الدولتين في وسط وشرق أفريقيا، ومن ثم قامت بإحتلال مناطق في البحيرات

الإستوائية. ومن جهة أخرى فإن بريطانيا نفسها كانت تعتبر تلك المنطقة ملكاً مباحاً ولا صاحب لها، وذلك عندما قامت بإبرام معاهدة عام 1894م/1312هـ مع ليوبولد ملك بلجيكا وتم بموجبها تأجير منطقة حاجز جبل لادو و أجزاء من أراضى بحر الغزال و الإستوائية إلى دولة الكونغو الحرة المجاورة لتلك الجهات والتي يملكها ليوبولد.

لم يلبث موقف بريطانيا أن تعرض للتبديل بتدخل القوات الفرنسية فى المنطقة، حيث إحتجت بريطانيا بحقوق الدولة العثمانية فى تركيا مرة أخرى، وإمعاناً فى الإزدواجية فقد إكتفت برفع علم الحكومة التركية و لم ترفع العلم البريطانى تأكيداً لتلك الحقوق فى نظرها.

الهوامش:

- (1) سلاطين باشا، السيف والنار، تعريب جريدة البلاغ (بدون) ص 244.
- (2) مكى شببكية، السودان عبر القرون، دار القلم، بيروت، بدون تاريخ، ص 164.
- (3) مدثر عبد الرحيم، الإمبريالية والقومية فى السودان، (1899 - 1956م)، دار النهار للنشر، بيروت، 1971م، ص 230.
- (4) اللورد كرومر، بريطانيا فى السودان، ترجمة عبد العزيز أحمد عرابى، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة 1960م، ص 230.
- (5) R. Gray, A history of the Southern Sudan, London, 1961, p. 69.
- (6) مكى شببكية، السودان عبر القرون، مرجع سابق، ص 424.
- (7) محمد سيد محمد، دراسة بعنوان (أزمة فشودة) مجلة البحث العلمى، جامعة أم القرى، العدد الخامس، 1402هـ، 513 - 515.
- (8) ب.م. هولت، المهديّة فى السودان، ترجمة جميل عبيد و أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الفكر العربى، (بدون)، ص 251.
- (9) N.R.O., South 1/13/126, Collins R. the Sudan link to the north, typescript, and P. 26.

- (10) على محمد بركات، السياسة البريطانية وإسترداد السودان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977م، ص 72/71.
- * سيسل رودس، أحد رواد الإستعمار البريطانى، ومن أنشط رجال السياسة و المال فى بريطانيا، قضى وقتاً طويلاً فى جنوب أفريقيا حيث تمت على يديه مشروعات كبيرة فى تلك البلاد حتى صار أحد وزراء مستعمرة الكاب و تولى رئاسة وزرائها عام 1890م، وهو من الذين وحدوا جنوب أفريقيا تحت السيطرة البريطانية، وقد نشر مشروعه بين الكاب والقاهرة فى جريدة التايمز اللندنية فى شهر مايو 1898م. عبد الرحمن الرافعى، مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال، دار المعارف، القاهرة، 1983م، ص 162.
- (11) على محمد بركات، مرجع سابق، ص 77.
- (12) محمد سيد محمد، دراسة بعنوان (سلطنة زنجبار الإسلامية بين الإنجليز والألمان) مجلة جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، العدد الثانى، 1398هـ، ص 74.
- (13) زاهر رياض، إستعمار أفريقيا، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1965م، ص 195/194.
- (14) على محمد بركات، مرجع سابق، ص 81.
- (15) محمد سيد محمد، سلطنة زنجبار الإسلامية، مرجع سابق، ص 71.
- (16) هولت ب. م.، مرجع سابق، ص 329.
- (17) ألان مورهد، النيل الأبيض، ترجمة محمد بدر الدين خليل، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1977م، ص 329.
- (18) على محمد بركات، مرجع سابق، ص 60.
- (19) عبد الرحمن الرافعى، مصر والسودان فى أوائل عهد الإحتلال، مرجع سابق، ص 160.
- (20) محمد سيد محمد، سلطنة زنجبار الإسلامية، مرجع سابق، ص 82.

- (21) الشاطر بصيلى، معالم تاريخ السودان وادى النيل (من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر)، مكتبة العرب، القاهرة، 1966م، ص 239/238.
- (22) يونان لبيب، مرجع سابق، ص 74.
- (23) نفس المرجع ونفس الصفحة.
- (24) هولت ب. م.، مرجع سابق، ص 253/252.
- (25) مكى شببكة، السودان عبر القرون، مرجع سابق، ص 428/427.
- (26) على محمد بركات، مرجع سابق، ص 90 / 89.
- (27) الشاطر بصيلى، المرجع السابق، ص 210.
- * ننبه هنا إلى لعبة خطرة كان يقوم بها السياسيون فى أوربا آنذاك، إذ كانوا فى واقع الأمر يعملون من خلال الصحافة على إثارة الرأى العام نحو أمر ما، و من ثم يقومون بتنفيذ مخططاتهم التى يريدونها هُـم، تحت زعم الإستجابة لرغبة الجمهور و الرأى العام.
- (28) على محمد بركات، مرجع سابق، ص 83.
- (29) زاهر رياض، إستعمار أفريقيا، مرجع سابق، 217.
- (30) الشاطر بصيلى، معالم تاريخ السودان وادى النيل، ص 212.
- (31) الشاطر بصيلى، المرجع السابق، ص 237.
- (32) محمد سيد محمد، دراسة بعنوان (أزمة فشودة)، مرجع سابق، ص 513.
- (33) على محمد بركات، مرجع سابق، ص 194.
- (34) مكى شببكة، السودان عبر القرون، مرجع سابق، ص 461.
- (35) هولت ب. م.، مرجع سابق، ص 254.
- (36) مكى شببكة، السودان عبر القرون، مرجع سابق، ص 461. على محمد بركات، مرجع سابق، ص 194.
- (37) Gabriel Warburg, The Sudan under Wingate, London, Frank Cass, 1978, p.2.

(38) محمد فؤاد شكرى، مصر والسودان (تاريخ وحدة وادى النيل السياسية فى القرن التاسع عشر) 1820-1899م، دار المعارف بمصر، القاهرة، ط3، 1963، ص 453.

(39) مدثر عبد الرحيم، مرجع سابق، ص 33.

(40) على محمد بركات، مرجع سابق، ص 198.

(41) Declaration relating to the British and French spheres of Influence in Central Africa, C. 9134 (Egypt, no. 2, 1899)